

بين الحرب والجغرافيا

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

أوروبا قارة صغيرة ؛ بل إن كثيراً من الجغرافيين لا ينظرون إليها إلا على أنها شبه جزيرة كبير يمتد من قارة آسيا ويتفرع عنها . وهي فوق ذلك تقع في منطقة متطرفة في أقصى شمال غرب العالم القديم ؛ ولم يبرز شأنها وتتضح قيمتها بين القارات الأخرى إلا منذ عهد النهضة الحديثة . فهي فيما عدا أطرافها الجنوبية في بلاد اليونان وإيطاليا وأسبانيا لم تلعب دوراً يذكر في تاريخ العالم القديم أو الوسيط ؛ بل هي من حيث تاريخها الثقافي العام بقيت عالة على غيرها ، لاسيما بلاد الشرق التي ظهرت فيها الأديان السماوية وألوان الفكر والثقافة القديمة والوسيط ، ثم انتشرت إلى أوروبا . ومع ذلك كله منذ عهد النهضة الحديثة وظهور الصناعة التي تعتمد على الآلات والقوى المحركة برزت أوروبا فجأة ، وفهزت إلى القمة ، فأصبحت القارة المسيطرة على الشؤون العالمية ، بل القارة الأولى من حيث توجيه حياة العالم في ميادين الحضارة المادية والعلاقات الدولية بين الأمم والشعوب .

وليس هذا مجال الإفاضة في أسباب بروز أوروبا المفاجيء ؛ ولكن يكفي أن ننظر نظرة عامة إلى تطور مدنية الإنسان على سطح الأرض ، فنجد أن المدنات القديمة كانت في مجلتها قائمة على أساس الزراعة كما هي الحال في مصر والعراق والصين ، أو على أساس التجارة كما هي الحال في اليونان القديمة . ومع أن الصناعة كانت مزدهرة في تلك الأيام ، فقد كانت كلها تقوم على المهارة الفنية والحذق الشخصي أكثر مما تقوم على استغلال قوى الطبيعة الآلية . وقد سخر الإنسان بعض تلك القوى الطبيعية في العصور القديمة والوسيط ، كالريج والمياه الحارية ومساقط الماء ؛ ولكنه كان تسخييراً محدوداً يقوم على استغلال القوى في حالتها الطبيعية . أما في عهد النهضة الصناعية الأوروبية ، فقد تعلم الإنسان لأول مرة أن يحوّل الحرارة إلى طاقة ، وأن يستخدم تلك الطاقة كقوة محركة تدار

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

بها الآلات التي تعمل في الإنتاج أو في النقل والحركة . وقد وضع هذا الاختراع — أو السلسلة من الاختراعات — في يد الإنسان سلاحاً سخر به موارد الطبيعة والقوى الطبيعية على نحو لم يكن ميسوراً من قبل ، وفي نطاق تغير معه كل شيء في الصناعة والإنتاج ، وفي الاتصال والتبادل ؛ بل تغيرت معه أسس الحياة الاقتصادية في ميادين الصناعة والزراعة والتجارة جميعاً ؛ وأصبح هذا العصر الجديد يسمى بحق « عصر الآلات » .

وكان من حظ أوروبا أن كثرت بها موارد القوى ، وأهمها الفحم الحجري ، وكذلك المعادن التي تستعمل في الصناعة ، وعلى رأسها الحديد . وبذلك توافرت العناصر التي تقوم عليها المدنية الصناعية الحديثة ؛ وأصبحت أوروبا بحق أسبق القارات وأولها في ميدان الصناعة ؛ وكان ذلك مصدر خير كثير بالنسبة لأهلها ، وإن كان قد أدى إلى انقلاب خطير في حياتهم . ولكن الشيء المهم على كل حال أن النهضة الحديثة قد صحبها ونتج عنها نشاط خطير بين أمم القارة التي تسابقت في ميادين الصناعة وما يتصل بها ويترتب عليها من توسع استعماري وتكالب من أجل مناطق إنتاج المواد الخام التي تغذي المصانع بما لا تنتجه أوروبا ، ومن أجل أسواق التجارة التي تصرف فيها المصنوعات . وهكذا اتسعت رقعة الاختلاف ، ولم تقتصر على أرض أوروبا ، وإنما تمدتها إلى ما وراء البحار ؛ وانتهى ذلك إلى أن أصبح لعدد من أمم أوروبا مصالح مادية فيما صار يعرف بالمستعمرات ومناطق النفوذ . وقد بدأت تلك المصالح في كثير من الأحيان تجارية واقتصادية خالصة ، ثم صارت بالتدريج سياسية وعسكرية . وهكذا تشابكت المصالح ، وتعددت أسبابها بين المناطق المعتدلة الباردة في أوروبا والمناطق الحارة والدفئة بل والمعتدلة في غيرها من القارات ، واشتد اتصال تلك المصالح بحياة أوروبا ومشكلاتها الدولية على مر الزمن ؛ حتى إذا ما بلغ التسابق من أجل التوسع الاستعماري الأوروبي ذروته في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالى ، كان ذلك نذيراً بما انتهى إليه الأمر في الحرب العالمية التي بدأت عام ١٩١٤ ، والتي نستطيع أن نقول إن العالم لا يزال في أعقابها حتى اليوم .

والحق أن أوروبا بنهضتها الصناعية ، ومواردها الغنية في الإنتاج الآلى ، ومصالحها المادية المتشابكة في أقصى الأرض ، وأطماعها الاستعمارية فيما وراء البحار ، ثم برغبتها الملحة في إشباع هذه الأطماع ، وإضافة ثروة العالم إلى ثروتها

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

واستكمال مواردها من موارده... كل ذلك قد جعل أوروبا المسئولة الأولى والأخيرة عن هذه الحرب التي استعز لها فيها فشمس العالم ، والتي اضطرت نيرانها وامتدت ألسنتها في فترتين ، إحداهما ما بين عامي ١٩١٤ ، ١٩١٨ والأخرى ما بين ١٩٣٩ ، ١٩٤٥ . وقد شبهناها في مقال سابق * بالجولتين في عراق واحد عنيف ؛ لم تكن أولاهما حاسمة ، في حين قضت الثانية على أحد الخصمين قضاء يبدو كأن لا قيام له من بعده إلى سنوات عدة قادمة .

وقد عالجنا في المقال السابق خطط تلك الحرب وآثارها ونتائجها في إقليم من العالم يهمننا بصفة خاصة ، هو الشرق الأوسط ، الذي يربط إلى حد كبير ما بين أوروبا ومصالحها الاستعمارية في الشرق وحول البحار الدفيئة في الجنوب . ويعنينا الآن أن نعالج دوافع تلك الحرب واتجاهاتها في أوروبا ذاتها... تلك القارة الصغيرة التي ساهمت بمواردها الطبيعية ونشاط سكانها في تقدم المدنية المادية الحديثة مساهمة فعالة ، جعلت لها ولاهها المكانة الأولى بين القارات وبين الأمم ، ولكنها مع ذلك كانت — ويغلب على الظن أنها ستبقى إلى جيلين أو أجيال أخرى قادمة — مصدر بلاء وحروب عالمية تكتوى بنيرانها الإنسانية حتى في أبعد البلاد عن أوروبا ، بل وفي الجزر النائية التي لا يكاد أهلها يعرفون عن أوروبا أكثر من أنها موطن ذلك الرجل الأبيض ، الذي هبط عليهم من حيث لا يشعرون ، والذي أقحم نفسه في شؤونهم وحياتهم من حيث لم يدعه أحد . ولكننا قبل أن نستعرض مختلف أجزاء تلك القارة وأممها المحاربة وميادينها العسكرية ، ينبغي من الناحية الجغرافية والبشرية العامة أن نميز بين جنوب القارة وشمالها . ففي الجنوب يسود مناخ البحر الأبيض المتوسط ، وهو مناخ معتدل منتظم يمكن التنبؤ بتقلباته في غير كثير من العناء . ولا يفرض هذا النوع من المناخ على من يعيشون فيه أن يكونوا مكافحين بطبيعتهم ؛ إذ هم يستطيعون مثلاً أن يقضوا معظم أشهر الصيف في العراء ، وهم يستطيعون بقليل من الجهد أن يتقوا برد الشتاء وأمطاره المتوسطة أو القليلة ، كما أن أشعة الشمس ودفع الهواء ورقته وجفافه تبعث كلها فيهم روح المرح وشيثا من روح الاسترخاف بالحياة . فأما شمال القارة وشمالها الغربي فنناخه بارد مطير

كثير التقلب ، تتنازعه مؤثرات المحيط الملطفة ، ومؤثرات القارة المتطرفة . وقد ترتب على ذلك ، وعلى كثرة الزوايح والأعاصير بصفة خاصة ، أن أصبح ذلك المناخ قاسياً غير معتدل ولا مضمون ؛ فهو كثير التقلبات من يوم إلى يوم ، بل من ساعة إلى أخرى . وقد علم ذلك المناخ سكان الإقليم الحذر وبعد النظر ، كما علمهم الكفاح من أجل الحياة ؛ إذ لا يمكن أحداً أن يعيش في العراء ، ولا أن يتقن أخطار الطقس وتقلبات الجو من غير مسكن صالح متين البناء ، ومن غير ملابس وغذاء كافيين ، في ذلك المناخ الشمالى الذى لا يعرف حياة الكفاف ولا يسمح بها . لذلك استلزم قيام المدنية في هذا القسم من أوروبا أن تتعلم الشعوب هناك الكفاح والنضال ضد الطبيعة القاسية . وقد انعكس ذلك في حياتهم وفي حروبهم بصفة خاصة . ولعل ذلك يتضح لنا في صورة جليلة إذا ما نحن قارنا ما حدث خلال هذه الحرب المنتهية في حالة العناصر اللاتينية من جهة ، والعناصر الانجلوجرمانية والصقلية الشمالية وغيرها من سكان شمال أوروبا من جهة أخرى . فقد كان كفاح الأولى على الجملة فاتراً في روحه محدوداً في مداه ، وتمثل ذلك بصفة خاصة في حالة الإيطاليين ، على حين صابر أهل الشمال وجاهدوا حتى النهاية المرة . ولو أن البريطانيين مثلاً كانوا من عنصر اللاتينيين وعجبتهم ما كابروا في ساعة المحنة الكبرى ، عند مارق حبل الأمل حتى كادت شعرته تنقطع . كذلك لولا روح المغامرة وطبيعة الكفاح ما وقفت فنلندة في وجه روسيا مرتين في هذه الحرب ، وما ثابرت وصابرت حتى النهاية أو ما يقارب النهاية . بل لولا هذه الروح وتلك الطبيعة ذاتها ما كابر أهل بولندة وضخوا إلى آخر رمق ، ولما ثبت الروس أنفسهم في كفاحهم الطويل ضد خصمهم المكافح وعدوهم الجبار العنيد .

وإذا نحن تتبعنا أثر العوامل الجغرافية في مختلف أقطار أوروبا وشعوبها ، لاسيما تلك التى كان لها دور خاص في هذه الحرب ، فإننا نجد في هذه الدراسة ما يعين على تفهم كثير من أحداث الحرب واتجاهاتها الكبرى ، تفهما صحيحاً ، تبرز به علاقة الحرب بالميدان الذى تجرى فيه ، كما يبرز الدور الذى قام به كل شعب من الشعوب المحاربة الكبرى ، ومقدرته على النضال والمصابرة في الكفاح . وقد يكون من المفيد أن نختار أمثلة من مختلف الأقطار والأمم ، حتى نخرج بصورة عامة تمثل القارة في مجموعها تمثيلاً صادقاً وشاملاً في الوقت نفسه .

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

ويمكن أن نبدأ بالجزر البريطانية وسكانها ، لا شيء إلا لأن هذه الجزر الصغيرة قامت بدور أساسي وخطير في الحرب . وهي إنما كتب لها أن تقوم بما قامت به في تاريخ أوروبا الحديث ، وفي صلات القارة بالعالم الخارجي ؛ لتوافر عدد من العوامل الجغرافية مكنت لبريطانيا من أن تلعب ذلك الدور الممتاز . فهي جزيرة أو جزر غنية بثروتها المعدنية لاسيما الفحم الذي قامت على أساسه نهضتها الصناعية ، ويفصلها عن القارة ببحر الشمال وبحر المانش ومياههما الضيقة التي لم « تقطع » صلة بريطانيا بالقارة ، وإنما « نظمت » تلك الصلة ، وظهر هذا التنظيم في نواح متعددة ؛ منها أن بريطانيا عندما سُحِرت بالسكان من القارة لم يهاجر إليها كل من هب ودب ، وإنما كانت موجات الهجرات تأتي من الشرق أو من الجنوب الشرقي إلى شواطئ القارة في مقابلة الجزر البريطانية ، فلا يفكر في استمرار المهاجرة بالبحر إلا العناصر المخاطرة ، لاسيما أن الملاحه في مضائق المانش لم تكن سهلة على مدار العام ، وإنما زاد من صعوباتها شدة التيارات البحرية ووجود الأعاصير الشتوية . ولذلك كان البحر للهجرات البشرية بمثابة المصفاة ؛ فلم يصل بريطانيا على الجملة إلا العناصر التي لم يغلبها البحر ولم يحل بينها وبين أن تستكشف ما وراءه ، فتركت القارة إلى الجزر التي يحيط بها البحر من كل جانب . وهكذا وصلت هذه الجزر موجات متتابعة من الكلتين القدماء والنرمانديين والانجلوسكسونيين والنورس وغيرهم من مخاطرى البحار الذين تجمعوا في تلك الجزر وأخذ بعضهم يخالط بعضاً ، حتى تألف منهم هذا العنصر البريطاني المختلط والمنوع ، في إنجلترا وبلاد الغال وأسكتلندة وإيرلندة وما يقع بين الجزيرتين الكبيرتين وحولهما من جزر صغيرة . وكما كانت طبيعة هذا العنصر وحبه للمخاطرة عاملاً فعالاً في تاريخه الحديث ، عندما حانت الفرصة للتوسع والاستعمار فيما وراء البحار ، فانطلقت ذرية أولئك المخاطرين القدماء إلى أقاصى الأرض في أميركا وأستراليا وجنوب إفريقيا وغيرها على نحو لم يسبق له مثيل في تاريخ انتشار الشعوب . كذلك كان اختلاط السلالات في بريطانيا عاملاً من عوامل القوة في المجتمع البريطاني ؛ إذ أنه أدى إلى تنوع الملكات ونواحي الاستعداد الفطرى ، فتشعب نشاط سكان بريطانيا في الصناعة والتجارة والحرب وغيرها من ميادين العمل والإنتاج والكفاح .

كذلك كانت الجزر البريطانية مدرسة بحرية تعلم فيها السكان حياة البحر

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

خلال أجيال طويلة متعاقبة . فلما جاء العهد الحديث ، وبرزت أهمية البحار في المواصلات العالمية، صارت بريطانيا سيدة هذه البحار وصاحبة الأسطول الأول في التجارة والحرب على السواء . بدأت بهزيمة أساطيل الأسبان وغيرهم من العناصر البحرية الأوروبية ، ثم تحكمت في المواصلات البحرية بين أوروبا وأمريكا بحكم موقعها الجغرافي بين الالنتين من جهة ، ومقدرة ملاحيتها وتجارتها من جهة أخرى . ثم صارت بعد ذلك القوة البحرية الأولى غير منازعة ، حتى أخذت عنها أمريكا زعامة البحار وسيادتها بالتدريج خلال الجيل الأخير ، ولأسباب تتصل بموارد الولايات المتحدة وكندا في المادة وعدد السكان ، أكثر مما تتصل بضعف بريطانيا أو انحلال قواتها البحرية .

وفوق ذلك فقد نظم البحر الذى يقوم بين بريطانيا واليابس الأوربي علاقات تلك الجزر بأوروبا من ناحية الحرب ذاتها ، فجعل غزو تلك الجزر صعباً . ولذلك لا يذكر التاريخ إلا عدداً قليلاً من الغزوات إلى بريطانيا في العصور القديمة والوسطية ؛ منها غزوة يوليوس قيصر عامى ٥٥ ، ٥٤ ق . م ، وغزوة وليم الفاتح عام ١٠٦٦ م . كذلك شاركت بريطانيا في العصر الحديث في مشكلات القارة وحروبها الكثيرة ، ولكن الحرب كانت تقع دائماً خارج أراضيها ؛ ففى تلى أعداءها إما على البحار وإما فوق أراضي القارة فى الأراضي الوطيفة وفرنسا وأسبانيا وغيرها . فأرضها لم تكن فى يوم من الأيام ميدان حرب أوروبية ؛ لذلك لم يصيبها ما يصيب تلك الميادين من دمار وتخريب . حتى فى هذه الحرب التى انتهت منذ عام لم يكن ما أصاب بريطانيا من جراء تغير الأحوال وظهور أثر الهجوم الجوى فى الحرب إلا جزءاً يسيراً مما أصاب أرض القارة ومدنها ومواصلاتها ومرافقها المختلفة فى الحياة المدنية . وهكذا استطاعت بريطانيا بفصل هذه الميزة أن تخرج من كل حرب سليمة المرافق ، قادرة على متابعة حياتها العادية وإنتاجها الاقتصادى ؛ على عكس غيرها من الأمم والاقتصادات التى اكتوت مدنها وقراها ومصانعها بل حقوقها بنيران الحرب فى الميدان ، فكانت بريطانيا بذلك أسبق إلى النهوض فى السلم ؛ لأنها كانت تخرج فى أعقاب الحروب — فيما عدا هذه الحرب الأخيرة — دون أن تمس أرضها بشئ .

إلى هذه الأسباب جميعاً يمكن أن نرجع ما أصاب بريطانيا فى تاريخها الحديث من نجاح وتوفيق فى حروبها الأوروبية ؛ لا سيما أن عامل الزمن كان إلى

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

جانبا ، فهي قد سبقت غيرها من أمم أوروبا الكبرى في التوسع الاستعماري ، وهي قد استطاعت أن تبني إمبراطوريتها المترامية الأطراف قبل أن تظهر بعض الأمم الأوروبية الكبرى إلى الوجود ، وقبل أن تبرز حاجاتها وأطماعها الاستعمارية . وقد ترتب على هذه الأسبقية في الميدان الاستعماري أن تجمع لبريطانيا من الموارد المادية والمواقع العسكرية العالمية ما كان لها عوناً وسنداً في السلم والحرب على السواء . ثم إنها بتوسعها هذا في آفاق الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس ، قد قطعت الطريق على غيرها من أمم أوروبا ، التي طلع عليها العهد الحديث بمواصلاته السريعة وعلاقاته الدولية المعقدة ومقتضياته الاقتصادية الملحة ، فألقاها - أو ألقي كثيراً منها - محصوراً داخل نطاق من الحدود السياسية التي لا تسمح بالتوسع إلا على حساب الأمم المجاورة ، وإلا في مدى ضيق تراق من دونه دماء الآلاف بل دماء الملايين . . . فأرض أوروبا التي تقاس بالشبر ليست نهباً رخيصاً كما هي الحال في أرض المستعمرات !

ولعل أظهر مثال لهذه الدول الأوروبية التي جاءت متأخرة في نشأتها القومية وتوسعها هي ألمانيا ، التي لم تستكمل وحدتها إلا أيام بسمرك . وقد دخلت بعد ذلك ميدان الاستعمار ، فنالت بعض الأراضي في شرق إفريقية وغربها وبعض جزر المحيط الهادي ، ولكنها لم تكن لتناظر بذلك ما سبقتها إليه دول أوروبا الغربية ، حتى الدول الصغيرة مثل هولندا والبرتغال ، التي وصلت الميدان مبكرة واحتفظت بما وضعت أيديها عليه من غنائم رخيصة . أما ألمانيا مع قوتها في الموارد وتعدادها في الرجال فقد جاءت متأخرة ، واضطرت من أجل ذلك إلى أن تناضل في توسيع مجالها الحيوي في أوروبا ذاتها ؛ وكان عليها ، منذ أن حددت علاقاتها السياسية بالنمسا ، واتخذت كيانها السياسي البروسي المستقل ، أن تبذل جهد المستيثس لتدفع حدودها السياسية ومناطق نفوذها الاقتصادي ناحية الغرب أو ناحية الشرق . فأما في الغرب فقد كان التوسع عسيراً ؛ فدول أوروبا الغربية قد سبقت ألمانيا ذاتها إلى الاستقرار السياسي ، وإلى شيء كثير من التقدم الاقتصادي الذي لا يفيد معه أن تحاول ألمانيا السيطرة على مرافقها الحيوية . وأما في الشرق فقد كان الميدان مفتوحاً أمام ألمانيا في اتجاهات ثلاثة : الأول ناحية روسيا الشرقية وسواحل البلطى حيث كان الفرسان التيوتون قد توسعوا من قبل ووطدوا نفوذهم الاقتصادي ، فامتلكوا المساحات الواسعة

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

من الأراضي وسعروا السكان الأصليين ماجورين في تلك المزارع التي تذكرنا الحالة فيها بعمد الإقطاع. والاتجاه الثاني في ناحية بولندة والروسيا؛ وقد استقر الألمان المتزايدون في العدد في كثير من بقاع بولندة الغربية، كما أن جماعات منهم رحلت إلى قلب روسيا القديمة وجنوبها، واستقرت هناك تعمل في الصناعة وغيرها من نواحي الإنتاج. ثم الاتجاه الثالث ناحية بوهيميا وبعض أراضي النمسا والمجر القديمة في اتجاه البلقان. ومن الممكن اعتبار توسع الألمان في هذه الاتجاهات الثلاثة جميعاً استثماراً بالمعنى الفعلي للكلمة، وإن لم يطلق عليه ذلك اللفظ تمييزاً له من حركة الاستعمار المعروفة في خارج القارة الأوروبية.

وهكذا حاولت ألمانيا أن تستفيد من موقعها الجغرافي في قلب القارة الأوروبية، ومن احتكاكها الاقتصادي والسياسي بالدول المجاورة، لا سيما في الشرق والجنوب. ولكنها عندما صمدت إلى التوسع المسلح وجدت نفسها مضطرة إلى أن تحارب في أكثر من جبهة واحدة؛ ففي الغرب كانت أم قديمة ذات مقدرة تقليدية على الدفاع، ولا يمكن قهرها بصفة دائمة؛ وفي الشرق والجنوب كانت بلاد فسيحة وجبهات لا تحدها معالماً واضحة، وإنما هي ذات شعب كثيرة تستنفذ الجهود، ولا يسهل معها التركيز في الهجوم، ولا حتى في الدفاع. فأما روسيا، وهي ثالثة الدول الكبرى في النضال الأوروبي الأخير، فكانت تحتل شرق أوروبا، وتمتد وراء ذلك في آسيا. والروس كثرتهم من الصقالبة، الذين امتازوا في كل تاريخهم بأنهم شعب برى لا يحب البحار ولا يسعى إليها إلا مكرهاً، قد تحاشى عند ما انتشر وحممر شرق القارة أن يقرب البحار، ولم يحاول التسلط على المنافذ البحرية إلا متأخراً. فالصقالبة الجنوبيون في يوجوسلافيا مثلاً قد تجنبوا ساحل دلماسيا القديم وموانئه التي احتلها الطليان، مثل تريستا وغيرها. والصقالبة الشماليون قد ابتعدوا عن سواحل البحر البلطي التي تقدم إليها التيوتون والفينشيون وغيرهم من سكان الولايات البلطية. والروس الجنوبيون وإن كانوا قد أطلوا على البحر الأسود، فهم لم يشتغلوا فيه كثيراً بالملاحة، ولم توفق جهودهم التاريخية في أن يضعوا أيديهم على منافذه إلى البحر المتوسط. لذلك كله فإن هؤلاء الصقالبة لم يشاركوا بشيء يذكر في توسع أوروبا البحري نحو المستعمرات، ولم ينشأ بينهم وبين أمم أوروبا الغربية ذات الصبغة البحرية من الاحتكاك مثل ما نشأ بين هؤلاء الآخرين

دواعي الحرب وأهدافها في أوروبا

وبين الألمان . . . ذلك الاحتكاك الذي ترتب على محاولة ألمانيا تقوية أسطولها وتمكين مصالحها فيما وراء البحار ، مما انتهى إلى الحرب بينها وبين بريطانيا آخر الأمر .

على أن مجال التوسع البري كان مفتوحاً أمام روسيا نحو الشرق . وقد بدأت بعد سكة حديد سيبيريا المعروفة ، ثم انتشر القوزاق وغيرهم واستعمروا سهول سيبيريا وآسيا الداخلية ، حتى وصل الروس إلى منشوريا والولايات البحرية المطلة على المحيط الهادى حيث احتكوا باليابان في مطلع القرن . وكذلك حاولت روسيا أن تتوسع بالبر نحو الجنوب الشرقى إلى أرض إيران ، وفي اتجاه أفغانستان والهند ، حيث اصطدمت بالنفوذ البريطانى اصطداماً لم يلطف من حدته إلا اتفاق عام ١٩٠٧ على تقسيم مناطق النفوذ في إيران .

وأما فرنسا ، وهى رابعة الأمم الكبرى في أوروبا ، فتقع عند الطرف الآخر من اليابس الأورپى من ناحية الغرب ؛ حيث تنتهى الطرق الآتية من البحر المتوسط ذى المدنية العريقة والحياة المستقرة القديمة ، وتلك الآتية من قلب القارة الذى لم تنفذ إليه المدنية إلا حديثاً ، والذى لم يكد يستقر بالحياة حتى فاجأته النهضة ، وما جاء فى أعقابها من اضطرابات وحروب وقلقة فى الحدود السياسية والعسكرية بين الأمم . وتنتهى تلك الطرق جميعاً إلى الشواطئ المواجهة لبريطانيا التى تتحكم فى المداخل البحرية إلى اليابس الأورپى ، وفى صلات أوروبا بما وراء البحار . وقد ساهمت فرنسا فى وقت متقدم فى حركة التوسع الأورپى إلى المستعمرات ، وحاولت فى ذلك أن تنافس بريطانيا حيناً ، وأن تجارها حيناً آخر ، ولكنها لم تفز من توسعها إلا بنصيب أقل كثيراً من نصيب سيدة البحار . ذلك أن فرنسا كانت ، بحكم موقعها الجغرافى بين القارة والبحر ، تتجاذبها سياسة الاستعمار من جهة ، وسياسة المشاحنات القارية والارتباطات الدولية الأوربية من جهة أخرى . وهى فوق ذلك كانت بحكم موقعها الجغرافى أيضاً ميدان حرب سمت إليه جيوش الأعداء والحلفاء على السواء ، من الشرق أو من الغرب أو من وراء البحار . وتمثل ذلك على الخصوص عندما بدأ الطموح يدفع بالعنصر الجرمانى إلى التوسع نحو الغرب ونحو البحار ، فاصطدم أولاً بفرنسا ذاتها اصطداماً ناجحاً فى عام ١٨٧٠ ، ثم بفرنسا وبريطانيا معاً اصطداماً غير ناجح فى الحرب العالمية الأخيرة بحولتيها فى أعوام ١٩١٤ - ١٩١٨ ثم ١٩٣٩

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

— ١٩٤٥ . ولعل الطريف في هذا الصدام الأخير بشقيه أن فرنسا ناءت منه بالحمل الأكبر من حيث التخريب ؛ فكانت أرضها ميدان قتال عنيف خلال سنوات طويلة ، عند ما اكتسحتها جيوش الألمان في حروبها الخاطفة وغير الخاطفة ضد الحلفاء ، وعند ما اتخذتها بريطانيا وحلفاء الغرب ميदानاً يقاتلون فيه أعداءهم على القارة ، وينفذون منه إلى الأراضي الوطیئة وغرب ألمانيا من جهة ، وإلى حدود إيطاليا وشمالها من جهة أخرى .

تلك أهم أمم أوروبا ، والعوامل الجغرافية والبشرية التي كيفت توسعها الحديث ، ووجهته توجيهاً كان له أبعد الأثر فيما قام في تلك القارة من مشكلات خلال النصف الثاني من القرن المنصرم ، وهذا القرن الذي نعيش فيه . ولكن هناك أمماً أخرى أثرت فيها عوامل ماثلة أو مختلفة ؛ منها الأراضي الوطیئة التي كانت على الدوام حلقة الاتصال بين ألمانيا من جهة ، وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى . فكانت طريق التوسع العسكري من جانب ألمانيا ، وجرت على أراضيها ، لا سيما سهل الفلاندر ، معارك تاريخية متكررة ؛ ولذا استمسكت بريطانيا باستقلالها ، ونادى بعض البريطانيين بأن حدود بلادهم العسكرية إنما تقع على ضفاف الرين . وغير الأراضي الوطیئة هناك بلاد البلقان ، التي تتعقد فيها الطبيعة وتتعدد تبعاً لذلك حياة السكان وأحوالهم ، بحيث أصبح شبه الجزيرة يعرف بمتحف الأجناس والثقافات في أوروبا . فهناك تختلط السلالات ولا يمتزج بعضها ببعض ، وتتكاثر الثقافات ولا يتسق بعضها مع بعض . وهناك تتشابك الحدود السياسية فلا تتمشى مع حدود الطبيعة ، ولا حدود الجنس ، ولا حدود الثقافة ، ولا حدود المصالح الاقتصادية . وهناك تتنازع تيارات النفوذ الدولي ، فتسعى كل من ألمانيا والروسيا وإيطاليا وحتى دول الغرب لأن تكون لها يد وتوجيه في شؤون البلقان . ولذلك كله كان هذا الركن من أوروبا موطن اضطراب دائم ومصدر مشاحنات ومنازعات ، كثيراً ما انتهت إلى إشعال الحرب بين الأمم الكبيرة . أما إيطاليا فكانت تمثل دولة حديثة ، بل آخر الدول الحديثة ظهوراً في الميدان الأوروبي . وكانت بحكم موقعها الجغرافي ذات أهمية خاصة في كل كفاح ينشأ على القارة ، ويمتد إلى حوض البحر المتوسط . وقد جاء دورها في الاستعمار الخارجي متأخراً ، فلم تصب إلا ما تبقى وزهد فيه الآخرون . ولكنها في العهد الفاشستي انتهزت بعض الفرص فوضعت يدها على الحبشة ، وأحيت آمالها في

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

التوسع نحو البلقان ، بل سرى الخيال بسادتها وقادتها إلى أن يفكروا في استعادة مجدها الرومانى القديم . ومع ذلك كله فإن إيطاليا على الجملة لم تكن موفقة فيما ساهمت فيه من حروب حديثة على أرض القارة . وربما كان مرجع ذلك ، أو أحد مراجعه ، أنها حاولت أكثر مما تستطيع ، فحشرت نفسها بين جبابرة الحرب حشراً ، وكانت في ذلك كالحر يحكى الأسد . وقد ينفعنا في هذا الصدد أن نلاحظ نقطة ضعف خطيرة في تكوين هذه الدولة القومية ؛ فهناك فارق كبير بين شمال إيطاليا حيث الثروة الزراعية والصناعية ، وحيث مستوى المعيشة والثقافة لا يكاد يفترق عنه في بقية أجزاء أوروبا الغربية ، وبين جنوبها حيث الجفاف والفقر والمرض ، وحيث ينحط مستوى المعيشة إلى حد لا تعادله إلا حال أفقر أجزاء القارة . وقد أدى التفاوت بين الشمال والجنوب في هذه الدولة الناشئة إلى عدم الاتساق والتكافؤ بين شطرى الوطن الواحد ، بل بين شطرى الشعب الواحد . وكان ذلك عامل ضعف خطير كامن في كيان إيطاليا والامة الإيطالية ؛ لعله أن يكون — إلى جانب فقر البلاد العام من حيث مقومات الحياة الصناعية الناهضة — مصدر ما انتهى إليه الأمر ساعة المحنة من تصدع وتفكك وانحلال .

من هذه الأمم جميعاً وغيرها من الأمم الصغيرة والمتوسطة تألفت قارة أوروبا ، فحلت قارة معقدة التركيب متنافرة التكوين من النواحي الطبيعية والبشرية على حد سواء ؛ فلا هى مؤلفة من أم متميزة ، لكل منها توجيهها الجغرافى ، وطابعها الثقافى والحضارى الذى يختلف به عن بقية الأمم ؛ كما هى الحال في آسيا حيث الصين والهند وجنوب غرب القارة (العالم العربى) ، وهى كلها مناطق لكل منها حياتها وحضارتها وتاريخها واتجاهاتها العامة ؛ أو كما هى الحال في أمريكا الشمالية حيث الولايات المتحدة وكندا من جهة والمكسيك من جهة أخرى . ولا هى مؤلفة من عدد من الأمم المتجاورة التى يسود بينها نوع من الرباط الثقافى والوحدة الفكرية ، وإن خالفت بينها الحدود والفوارق السياسية ، كما هى الحال في أمريكا اللاتينية . وإنما هى قارة تزاوجت فيها القوميات ، وتنافرت الأهداف السياسية ، وتداخلت الحدود تداخلاً يندر معه أن يتمشى حد سياسى لإحدى الدول مع حدها الطبيعى العسكرى ، أو مع حدها الجنسى أو الاقتصادى .

وزاد من التشاحن وحدته أن التقدم الحديث قد صاحبه أمران متنافران أشد التنافر ترتبت عليهما نتائج متعارضة أشد التعارض : أحدهما نمو روح القومية

دوافع الحرب واهدافها في أوروبا

الضيقة التي تقوم على أساس الجنس حيناً ، وعلى أساس الرباط التاريخي أو السياسي حيناً آخر ، والتي تدفع الأمم الناشئة إلى الانانية والآثرة ، وإلى أن تنطوى على نفسها ، ولا ترعى إلا مصالحها الخاصة بصرف النظر عن مقتضيات الجوار أو حتى عن بعض المقتضيات الإنسانية التي تهذب مراعاتها من نفوس الأمم كما تهذب من نفوس الأفراد . وثانيهما ذلك التقدم المادى وما صحبه من نمو في وسائل المواصلات ، وازدياد مدهش في سرعتها أدى إلى تشابك الأقطار وتداخل المصالح ؛ بحيث أصبح من غير الممكن لامة أن تعيش داخل حدودها وأن تنطوى على نفسها ، لا سيما تلك الأمم التي تقوم في داخلية قارة كأوروبا . والظاهر أن هذا التناقض والتنازع بين المصالح القومية والمصالح الدولية كان أكبر مما تستطيع النفس البشرية في أوروبا أن تتغلب عليه ؛ خصوصاً أن أوروبا ، بل الأوربيين الشماليين كما نعرفهم ، كانوا ولا يزالون محدثين فيما يتصل بكثير من القيم الإنسانية الصحيحة ، وما تقتضيه من تهذيب للنفس ورياضة للروح ؛ فقد قفزت بهم المدنية المادية الحديثة إلى القمة في بضعة قرون قليلة ، ووضعت في أيديهم سلاحاً من المادة والعلم والمعرفة بأسرار الطبيعة لم يكونوا مؤهلين لأن يتحكموا فيه ، ولا أن يوجهوه الوجهة الإنسانية الخيرة . وكان مثلهم في ذلك كمثل الصبي ، وضع في يده سلاح خطير لا يدرك قيمته ولا يحسن استعماله ولا توجيهه وجهة الخير والحق . ولذلك فهم قد سَخَّروا العلم في التدمير والتخريب كما سخروه في البناء والتعمير سواء بسواء . . . ولعل السر الأول في ذلك أن التقدم المادى في الحضارة الأوروبية الحديثة لم يكن له ما ينافره من ناحية الروح . فأوروبا ذات المدنية المادية المزدهرة لم تطلع علينا في عصرها الذهبي بوحي ديني جديد أو حتى بفلسفة إنسانية من ذلك النوع الذي يلهم الأرواح ويهذى النفوس ، بل يحد من طغيان المادة ، ويعاون على التحكم فيها بوازع من دين ، أو رادع من عقل أو من ضمير .

ومهما يكن من شيء ، فقد كانت النتيجة أن دخلت هذه القارة في حروب متصلة منذ طلع فجر نهضتها الصناعية الحديثة . وكانت هذه الحروب من نوعين ظاهرين ، وإن لم يتيسر دائماً فصل أحدهما عن الآخر : أولهما يتصل بتلك الحدود السياسية التي تفصل بين أمم القارة ، والتي قلل من قيمتها ما كان من تقدم في المواصلات ، وزيادة في الاحتكاك والاتصال ، وتشابك في المصالح بين

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

الشعوب . ولم تستقر حدود أية دولة من دول أوروبا الحديثة أكثر من جيل أو بعض جيل . وقد تتابعت الحروب سريعة في معظم أنحاء القارة ، وترتب عليها ظهور دول واختفاء أخرى أو اندماج بعضها في بعض . وأغلب الظن أن هذا النوع من الحروب التي تقوم من أجل تعديل الحدود بين دول أوروبا لن ينتهي أمره قبل أجيال ، وأن أوروبا لن تخلص منه حتى يجيء اليوم الذي يدرك فيه أهلها أن الحروب السياسية في مثل هذه القارة التي تضيق بالسكان لا يجب أن تقوم عقبة في سبيل تحقيق الاتحادات الاقتصادية التي تقضى بها طبيعة الأشياء ، وتحتمها مقتضيات الحياة المادية المعقدة في هذا الركن المضطرب من العالم . وأما النوع الآخر من الحروب التي انتابت أوروبا في عهدها الحديث فذلك الذي يتصل بالتوسع الاستعماري فيما وراء البحار ، والسيطرة على تجارة العالم والتحكم في علاقات الأمم بعضها ببعض ، لاسيما علاقات أوروبا بغيرها من القارات . وقد تمثل هذا النوع بصورة واضحة فيما كان من نزاع بين الجرمان والبريطانيين خلال الأربعين سنة الأخيرة أو أزيد من ذلك . فقد ضاق مجال الحياة والنشاط بالألمان في وسط القارة ، فوطدوا النية على انتزاع السيطرة العالمية من بريطانيا ، أو مشاركتها فيها على الأقل ، وأخذوا في بناء قوتهم البحرية استعداداً لذلك . ولكن بريطانيا لم تكن من الغفلة بحيث تترك الأمور تسير إلى غير مصيرها المرسوم ؛ فقابلت خطة ألمانيا بمثلها ، حتى إذا ما جاءت الحرب كانت الظروف مواتية لبريطانيا من ناحية القوة البحرية على الأقل ، وانتهى الصراع المروع الذي بدأ في عام ١٩١٤ بهدنة موقوتة في عام ١٩١٨ ثم بنصر أكيد في عام ١٩٤٥ . وبدت بريطانيا وكأنها قد احتفظت وحلفاءها الناطقين بالإنجليزية في أمريكا بسيادة البحار والسيطرة على علاقات أوروبا بالمستعمرات فيما وراء البحار . ومع ذلك فمن يدرينا ! فقد تكون هذه الحرب التي انتهت منذ عام خاتمة دور من أدوار التاريخ الأوربي بين الجرمان والبريطانيين من أجل السيطرة العالمية ، وفتاحة دور جديد بين الصقالبة والناطقين بالإنجليزية في بريطانيا وأمريكا ! لقد استغرق الدور الأول أربعين عاماً أو تزيد بين استعداد الحرب ونضال مسلح دام زهاء عشرة أعوام في الجولتين ، بل لقد انقلب هذا النضال بحولتيه إلى جرب عالمية مروعة شارك فيها أكثر من ٩٠ ٪ من سكان العالم ، وقضى فيها أو بسببها ما يناهز خمسة وعشرين مليوناً من الأنفس .

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

أفيخيء القدر للعالم أن تبثليه أوروبا بحرب عالمية جديدة يستغرق الاستعداد لها جيلاً آخر، ويطول النزاع المسلح فيها إلى أكثر من جولة واحدة؟ لعل أشد ما تهلع له النفوس أن النزاع الجديد — إن وقع — فسيكون بين قوتين مختلفتين في الاستعداد تمام الاختلاف؛ فأحدهما تستند إلى الأساطيل والقواعد البحرية، وهي ضرورية للسيطرة العالمية والتحكم في المواصلات، ولكنها لا تكفي لاكتساح اليابس واحتلال ظهر القارات، على حين تستند الأخرى إلى الجيوش البرية التي هي أداة ضرورية لاكتساح الميادين واحتلال المواقع، ولكنها لا تستطيع بدون الأساطيل أن تسيطر على المواصلات العالمية. ومعنى هذا أن الحرب التي ينتظر أن تطالها أوروبا في المرة القادمة ستكون بين قوتين غير متناظرتين ولا متكافئتين؛ ولن تستطيع إحداها — بحكم تكوينها — أن تتمكن من الأخرى دون استعداد شامل وتضحية بالغة. وإذا لم يلجأ المتحاربون في نضالهم المقبل إلى أسلحة ذرية لا يمكن أن يتنبأ أحد بنتائج استخدامها بالنسبة لهم وللإنسانية جمعاء، فإن الحرب لا بد أن تطول... وهي لا ينتظر أن تنتهي بأحد الفريقين إلى نتيجة فاصلة في جولة واحدة على أية حال!

سليمان مرزوق